المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v8i3.395

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2-8-2024
تاريخ القبول: 20-8-2024

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

حوار مع الأستاذ جمال علال البختي[1] حول:

المحاولات التجديدية في مسار الدرس الكلامي

يحاوره: مرزوق العمري[2]

merlamri@yahoo.fr

ملخص:

يتضمن هذا الحوار عدة مسائل كلها على اتصال بعلم الكلام الجديد ومن جوانب مختلفة؛ فقد تضمن محاولة تحديد بعض المفاهيم كمفهوم علم الكلام الجديد، والتجديد في علم الكلام، وكذا فلسفة الدين؛ فالتجديد في علم الكلام دال على جعله جديدًا، وهو أمر حاضر في التراث الكلامي فمنذ اللحظة الأولى التي عرفت نشأة المدارس الكلامية تشكل الاهتمام التجديدي لدى المتكلمين يومها. أما علم الكلام الجديد فهو محاولة لبث الحياة في العلم المنافح عن العقيدة الإسلامية، أما فلسفة الدين فقد تأتي أحيانًا مرادفة لعلم الكلام باعتبار كلٍّ منهما دراسة علمية للدين. كما تضمن هذا الحوار مبررات التجديد في علم الكلام والتي تتمثل أساسًا في إفرازات الواقع المعيش من متغيرات علمية وقانونية وأيديولوجية... وغيرها. من جهة أخرى تابع هذا الحوار مراحل التجديد الكلامي بدءًا بظهوره في الهند ثم استمراره في الفضاء الإسلامي غير العربي مثل إيران مع المفكرين الشيعة، وانتهى الحوار إلى الدعوة إلى تجاوز الخلافات الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:

التجديد، علم الكلام، العقيدة، فلسفة الدين.

(1) كلية أصول الدين، جامعة عبد المالك السعدي- جامعة تطوان، المملكة المغربية.
(2) كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1.

للاقتباس: العمري، مرزوق، الأستاذ الدكتور جمال علال البختي لمجلة نماء: المحاولات التجديدية لعلم الكلام تستشرف القصد الإيحائي والتصحيحي لمسار الدرس الكلامي، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج8، ع3، 2024، 80 - 92.

OPEN ACCESS
Received: 2024-8-2
Accepted: 2024-8-20

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

An Interview with Professor Jamal Alal Al-Bukhti[(3)]:

On the Renewal Attempts in the Course of Theological Discourse Interviewer:

Marzouk Al-Amri[(4)]

merlamri@yahoo.fr

Abstract:

This discussion explores various topics related to the study of new Islamic theology (Ilm al-Kalam) from different angles. It seeks to define key concepts such as new Islamic theology, renewal in Islamic theology, and the philosophy of religion. The idea of renewal in Islamic theology refers to making the discipline contemporary, a concern that has been present since the inception of theological schools, where scholars displayed an interest in renewal. The concept of new Islamic theology aims to reinvigorate the field that defends Islamic beliefs. At times, the philosophy of religion is seen as synonymous with Islamic theology, as both involve the scientific study of religion. This dialogue also highlights the reasons for renewing Islamic theology, which primarily stem from changes in contemporary realities, including scientific, legal, and ideological shifts, among others. The discussion also tracks the stages of theological renewal, beginning with its emergence in India and continuing in the non-Arab Islamic world, such as Iran with Shiite thinkers. It concludes with a call to transcend intra-Islamic differences.

Key words:

Renwal, thelogy, Islamic faith, religious philosophy

(3) aossouleddin faculty - titwan university, Marocco
(4) Islamic sciences faculty- Batna (1) university, Algeria.

Cite this article as: merzouk, Lamri, Dr prof djamel allal bakht i to Nama magazine: The renwal attempts for theolgy targeting the suggestive and corrective intent for the theological lesson., Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 8, issue 3, 2024, 80 - 92.

يتبوأ التجديد مكانة مهمة في الرؤية الفكرية الإسلامية. يمكن تبرير هذا الأمر بعالمية الإسلام وكونيته، وبسبب أن الرسالة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان. ويمكن أن نقف على وعي المتكلمين والفقهاء، طيلة التاريخ الإسلامي، بهذا الأمر، وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي الذي ألّف كتابًا تجديديًّا بامتياز، يتعلق الأمر بمصنفه الشهير «إحياء علوم الدين».

تقرر عند الفقهاء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، وذلك بسبب المستجدات الحياتية التي تقتضي تطويرًا للتفكير وأدواته إزاء النوازل والمستجدات. ولم يكن علم الكلام بمنأى عن المستجدات، أيضًا، خاصة في العصر الحديث، بعد صدمة الحداثة.

أوقفت الحداثة العقل المسلم على نموذج وجودي ومعرفي يشكل تحديًا كبيرًا للنموذج الإسلامي المستقر. وبما أن علم الكلام مهمته دفاعية ابتداءً؛ فقد تبلورت نداءات تجديدية مبكرة، حاولت تأسيس فكرة «علم الكلام الجديد». ويعد شبلي نعماني أول من وظف المصطلح، وألّف فيه كتابًا حمل العنوان نفسه. ثم توالت الدعوات التجديدية، والتي ما فتئت تزداد يومًا بعد يوم.

في هذا الإطار أجري هذا الحوار مع الدكتور جمال علال البختي وهو أستاذ العقيدة في كلية أصول الدين بجامعة تطوان بالمملكة المغربية، وأحد المتابعين للدرس الكلامي في سياقه الجديد، للوقوف على القضايا المتصلة بهذا المبحث المعرفي الناشئ، وأهم ما استجد فيه من قضايا وإشكالات.

1. يمثل التجديد في علم الكلام هاجسًا كبيرًا للباحثين المعاصرين في علم الكلام، وقد برزت اهتمامات أكاديمية بهذا الموضوع. لكن قبل أن ندخل في صلب الموضوع، ماذا يعني التجديد في علم الكلام؟

التجديد يرجع في الأصل اللغوي إلى المادة اللغوية: جدّ، وهي خلاف قدم. فالجديد ضد القديم، وهو كذلك نقيض البلى، والتجديد: «تصيير الشيء جديدًا بما يضاف إليه من عناصر ومقومات مادية أو معنوية بحسب طبيعة الشيء». وهذا ينطبق على التجديد في علم الكلام شأن بقية العلوم الشرعية.

بادئ ذي بدء أعتقد أن التجديد في علم الكلام ليس أمرًا مستحدثًا ولا يمثل راهنية الدرس الكلامي في واقعنا العلمي المعيش، بل إن الرؤية التجديدية لعلم الكلام في اتجاهاته المتعددة ومذاهبه المتنوعة

ظلت مصاحبة للدرس الكلامي. فمما منَّ الله به على أتباع ملة محمد ﷺ أن زرع في عقولهم نبتة التجديد الدائبة، فعلوم الأمة الإسلامية مهما فترت وخبت ما تلبث أن تعود إليها الحياة وتشتعل فيها الروح، وقد جلّى النبي الكريم ﷺ سر ذلك التجدد والانبعاث عندما قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، ويشير ذلك إلى أن إحياء العلوم الشرعية وتجددها بصفة عامة، وموضوع «**تجديد علم الكلام الإسلامي**» على وجه الخصوص، ليس أمرًا مستجدًا لم يعرفه أهل الكلام السابقون، ولم يكن ضمن برامجهم وهم يشتغلون لإغناء العلم وإبداع التآليف، وإنما كانت قناعة انتشرت وراجت في عطائهم، بحيث لو تمعنا -برؤية العارفين المطلعين فيما تركوا لنا من أعمال ومؤلفات- لوجدناها مفعمة بكل علامات الجدة والإبداع، فما من فترة من فترات تطور علم الكلام إلا ونعثر فيها على مستجدات لم يتعرض لها المتقدمون، والمتأمل فيما خلفوا لنا سيطلع على أن ما قدمه منشئوا علم الكلام أولًا متميز على ما قدمه لاحقوهم، وما قدمه المتأخرون مزيد على ما أنتجه وقدمه السابقون وتابعوهم وهكذا.

من هنا توَجَّب القيام بالبحث في موضوع تاريخ علم الكلام، والنبش في خصوصيات وإضافات كل مرحلة من مراحله التطورية على المستوى المعرفي وعلى مستوى الخلفيات الكبرى الموجهة للعلم، وعلى مستوى الأنساق حتى تتحقق لنا المعرفة الشمولية بتطور العلم ومتابعة مسيرته غير القصيرة، من أجل استكناه العوامل التي كانت وراء نجاحه فيما حققه من نجاح والوقوف على أسباب تعثر العلم في لحظات التراجع.

ويعلم الجميع أن المحاولات البحثية الكثيرة اتجهت -في هذا الشأن- نحو تقويم العمل والدرس الكلامي بالنظر في تاريخه، مستشرفة القصد الإحيائي والتصحيحي لمساره التاريخي الطويل، ولا شك أنها سجلت بوضوح أن العلم ارتبط في انطلاقته ارتباطًا بحاجيات الأمة للإجابة عن عدة نوازل واجهت الأمة على مستوى قناعاتها الإيمانية، فكان العلم بذلك علمًا وظيفيًّا انطلق من حاجات واقعه، ولكنه في فترة ضعف الأمة تهاوى إلى بحوث تجريدية أكبت على القديم وتعاطت مع حصيلته، متجاهلة أن واقعها شهد من التغير والتحول ما استوجب أن يقع التنبيه للوظيفية التي افتقدت في الدرس العقدي... لهذا كان أمر التجديد في علم الكلام الإسلامي قضية مهمة، يتطلبها الشرع والواقع والبحث العلمي.

2. بناءً على تحديدكم لمعنى التجديد، هل يمكن الجزم بحضوره في التراث؛ كأن نقول مثلا لحظة المعتزلة لحظة تجديدية بالنسبة لمدرسة السلف، واللحظة الأشعرية محطة تجديدية بالنسبة لمدرسة الاعتزال؟

ارتباطًا بما ذُكِرَ في الجواب السابق أؤمِّن على الرأي الذي يعتبر انبثاق الاتجاهات الكلامية موجات تجديدية للعلم، ولا شك أن وراء معظم الحركات التغييرية والتصحيحية وحتى الانقلابية المذهبية رغبة في تجديد الرؤية، وتقديم الحلول، وتطوير الأفكار. ومن هنا ومن دراسة للسياقات التي ظهرت فيها المذاهب الكلامية والعوامل التي أدت إلى نشوئها يتبين أن الهم التجديدي مسيطر على عقول المؤسسين والأتباع، فالاعتزال كان ظهوره نابعًا من الحاجة الدينية إلى تجديد الرؤية الإسلامية في التعامل مع التحديات الفلسفية والعقدية المخالفة التي وفدت على العالم الإسلامي نتيجة الفتوحات ودخول عدد من العلماء والفلاسفة والمثقفين غير المسلمين من أصحاب الملل والنحل الأخرى تحت الحكم الإسلامي، ولم يكن بإمكان علماء الأمة الإسلامية بمعارفهم النصية وحدها ولا بالآليات النقلية التي يمتلكونها أن يتحملوا قوة المواجهة مع الفكر الدخيل بآلياته العقلية والفلسفية والمنطقية ذات التجربة الطويلة والحنكة الجدلية، فكان الالتجاء من طرف المعتزلة إلى العقل وإلى الترجمة وإلى العلوم المنطقية أمرًا ملحًّا ركب أهل العدل والتوحيد أمواجه لشحذ أسلحتهم وتقوية استدلالاتهم في مواجهة الشبهات وبناء رؤية إسلامية نسقية جديدة تناسب المطلوب في المرحلة.

أما الأشعرية فكانت عملًا تجديديًّا للفكر الكلامي نبعت من حاجيات تاريخية ارتبطت بالتحولات التي تطلّبها الصراع العقدي بين المدرسة الاعتزالية التي أغرق بعض رجالها في تقديس العقل وبعض الاتجاهات الظاهرية الحرفية التي مالت إلى التشبيه والتجسيم ومجافاة كل تأويل عقلي أو أخذ بالمجاز الثابت في اللغة والاستعمال القرآني، فضلًا عن المواجهة الكبرى لأصحاب الفلسفات القديمة المجافية أو المعارضة لقضايا الدين الإسلامي ولأهل الكتاب. ومن هنا طرح الأشاعرة وجهة نظرهم التوسطية التي حافظت على القيمة والسبق للنص التوقيفي، ولكنها وظفت الدليل العقلي بنوع من التوازن التوسطي الذي لا يجافي مقتضيات الشرع ويحترم مستلزمات العقل، كما دعمت القدرات الجدلية والبرهانية للمدرسة السنية ولمدرسة السلف في اتجاه مجادلة الفلاسفة ورجال الدين اليهود والنصارى وغيرهم، فكان عمل رجال المدرسة الأشعرية عملًا تجديديًّا كبيرًا فرض نفسه على كل الاتجاهات الداخلية

والخارجية، ووافق على التزامه فئة عريضة من المؤمنين في معظم أصقاع العالم الإسلامي ولا يزالون.

بالنسبة للاعتقاد الشيعي يلاحظ المتتبع للمذهب أنه عرف بدوره تطورًا تجديديًّا عبر سيرورته التاريخية. من المعلوم أن انشقاق الشيعة عن إجماع المسلمين الأول كان راجعًا لاجتهادات مرتبطة باستحقاق آل البيت للخلافة بعد النبي ﷺ، ولكن هذا الاجتهاد لم يكن بالعمق الفلسفي الذي سينتشر لاحقًا، بل كان مجرد انتصار سياسي لعلي -رضي الله عنه- ضد مخالفيه من الأمويين والخوارج، ولكن بفعل الاصطدامات المتكررة مع الجهات الحاكمة، ونظرًا لشدة الصراع وحصول الانتكاسات العسكرية سيطور الشيعة مذهبهم في اتجاه وضع فلسفة عقدية تتعلق بالإمامة، والعصمة، والوصية للأئمة، والرجعة، والمهدية... وهكذا يبدو أن المذهب الشيعي ظهر أولًا اتجاهًا يقوم على موالاة بيت النبوة باعتبار هذا البيت أولى بالإمامة أو الخلافة، وانتصر للعلويين لما وقع عليهم (الظلم)، ثم تحوّل بعد ذلك إلى فرقة ذات نظريات متميزة في الحقل الكلامي والفلسفي الإسلامي عندما تبلورت نظرية «**النص والوصية**» في تصوره وصارت مرتكزًا لهذا الفكر. بل إن الرؤية التجديدية لدى الشيعة تجاوزت ما حصل عند السنة بالنظر إلى ابتداعهم للعقائد ورفعهم لبعض الأحكام إلى مستوى الثابت مع أنها تبقى لدى مخالفيهم مجرد أحكام عملية لا ترقى إلى مستوى ودرجة الإيمان والعقائد والثبات.

من هنا ومن خلال الحديث عن الفرق الكلامية الكبرى اعتزالية وأشعرية وشيعية يمكن الحكم بأن علم الكلام كان يعيش على إيقاع التحولات، والانشقاقات، والتفرعات، ولا شك أن الرغبة التجديدية التصحيحية كانت هي المحرك والدافع الرئيس وراء كل ما عرفته المذاهب العقدية الإسلامية بغض النظر عن مدى نجاح تلك العمليات التجديدية أو قوتها أو سلامتها من الانحراف والسقوط في المخالفات للقواعد والشروط المسطرة في العمليات التصنيفية والحُكمية.

3. إذا كان التجديد حاضرًا في تاريخ علم الكلام منذ اللحظة التأسيسية، لماذا نجد من يعترض، اليوم، عليه بحجة ثبات مسائله وعدم قابليتها للاجتهاد والتغيير؟

أنبه بشكل دائم إلى أمر أساسي ومهم، وهو وجوب التمييز بين علم الكلام والعقيدة أو العقائد، فعلم الكلام جانب متحول، في حين أن العقيدة بصفتها مضمونًا أمر توقيفي لا يمكن الحديث عن التجديد فيه، فالإيمان بالوجود الإلهي مثلًا أمر ثابت، ولكن أدلة العلماء لإثبات الوجود الإلهي البشرية هي اجتهادات قد تكون صحيحة وقد تكون اجتهادات مرجوحة.

والحق أن دعوى منع الخوض في مراجعة آليات ومواضيع البحث في علم الكلام بمسوغ الحفاظ على «الوحدة المذهبية»، أو الزعم بأن المجال العقدي مجال ثابت لا يحتاج إلى مزيد تمحيص، أو أنه منطقة يلزم أن تبقى في منأى عن التحليل وإعادة التركيب، هي تبريرات مرجوحة ودعاوٍ غير ناهضة، بالإضافة إلى أنها مسوغات تفتقد إلى الدقة والفهم السليم لمعنى الثابت وحقيقة المتغير في الدرس العقدي.

وأرى أن المشكل الأساس الذي عانى منه الفكر الكلامي الإسلامي -المشكَّل من آراء جل الفرق الكلامية الإسلامية، ومن غالبية البحوث الكلامية التقليدية- يتمثل في عدم التفريق بين المجال التوقيفي والجانب التوفيقي الاجتهادي في العقيدة. ولا ريب أن الخلط بين هذين المجالين أو الجانبين كان من وراء فتن وصراعات ومشكلات طويلة وعقيمة أنهكت الفكر الإسلامي في تاريخه، وشكّلت عائقًا أمام تطور الأمة، وأدت إلى تخلّفها حتى في تصوراتها الدينية والعقدية.

والحال أن البحث في تاريخ الفكر العقدي الإسلامي بحثٌ في فكر الأمة، وهو بحث ضروري يحتّمه الشرع قبل أن تفرضه مستلزمات البحث الوضعية؛ لأن الشرع نفسه أكد على التجديد في المناهج وأسلوب الدعوة، وقد أخبرتنا النصوص الدينية الصحيحة أن التجديد إحدى سنن الله في الكون والخلق. ولا غرو أن التجديد يكون في مجال الدين -عقيدة وشريعة-، ولما كانت العقيدة تضم -كما ذكرنا- جانبًا ثابتًا وآخر قابلًا للتحويل والمراجعة، عُلم أن التجديد في هذا المجال الديني يتعلق بالجانب الاجتهادي، أي باختصار بالجانب غير التوقيفي المتصل بالأرضيات التمهيدية، والمواضيع الخادمة للمضامين والأركان العقدية، ثم للآليات الاستدلالية والأساليب الحجاجية وما يرتبط بالأسس العقدية من قضايا تُعتمد لتقريب الثوابت أو المنافحة عن صدقها.

4. بناءً على ذكرتم، ما الأدوات العلمية والمواصفات البحثية التي تعتقدون أنها ينبغي أن تتوفر في الباحث في علم الكلام وقضايا تجديده؟

التجديد في الدين عمومًا وفي البحث الكلامي في نظري لا يمكن أن يضطلع به إلا أهل الاختصاص، لأنه ليس أمرًا هينًا ولا بسيطًا، بل هو جانب خطير لأنه يمس عقيدة الناس وإيمانهم، ولأن الخطأ فيه قد يوقع في الخروج عما سطره الخالق جل وعلا، الذي أكد على شمول عفوه وإمكان صفحه عن المخطئين، ولكنه حذر من الوقوع في الإشراك به. ومعلوم أن الشرك مرتبط أساسًا بما تفرضه العقائد

الثابتة التي نص القرآن والسنة عليها. قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ (النساء/116).

لذلك فإن المتصدي لموضوع التجديد في علم الكلام حاليًّا لا يمكن أن يقاس بمجتهدي العلماء القدامى، حيث كان يكتفى منهم بالمعرفة بالعلوم الشرعية الإسلامية والاطلاع على شبهات الخصوم، بل لقد صارت مهمة المشتغلين بعلم الكلام المتفرغين له اليوم أعقد وأصعب بحكم الانفتاح الذي صار إليه الدرس الكلامي حاليًّا على العلوم المتعددة الشرعية والمنهجية والتجريبية. فقد صار من الواجب أن يكون المشتغل بعلم الكلام ذا ثقافة متنوعة وواسعة فمن معرفته بالعلوم الإسلامية الدينية إلى معرفته بالفلسفات المعاصرة وبالنظريات العلمية الكبرى المتعلقة بالطبيعة وبالمادة، إلى معرفته بالعلوم النفسية والاجتماعية والقانونية فضلًا عن الاطلاع الكافي على الأديان وفلسفاتها، وعلى المذاهب الفكرية الرائجة حتى يستطيع فهم واقعه الديني وتقديم الحلول والصور النافعة للناس من أجل بناء عقائدهم الإيمانية وترسيخها، ورد هجومات المخالفين الطاعنين، وبناء الأجواء لتقبل الغير والتسامي في بسط معاني التسامح والتقريب التي نادت بها الأديان السماوية، وشجع عليها الإسلام، مع الاحتفاظ بالعزة، والانتماء إلى الهوية الحقة.

5. إذا كانت العملية التجديدية تفرز لنا قضايا جديدة تستدعي العمل على تبيئتها كلاميًّا، وهي التي اصطلح عليها بقضايا علم الكلام الجديد، فماذا يعني علم الكلام الجديد؟ وكيف نميز بينه وبين التجديد في علم الكلام؟

«تجديد علم الكلام» و«علم الكلام الجديد» محاولة لبث الحياة في العلم المنافح عن العقيدة الإسلامية، نظرًا لما شهده العالم الإسلامي من تحولات سياسية وثقافية وتراجع على عدة مستويات وفي عدة مجالات ومنها المجال الديني وفي بحوثه الفكرية بفعل ما تعرض له المسلمون من ضعف داخلي واستعمار سياسي، الأمر الذي أدى إلى وقوع اهتزاز في العقائد واصطدام للمؤمنين بقوة الغرب المادية التي دفعت الكثيرين إلى التشكك في قيمهم ومرجعياتهم الروحية، فكان من الطبيعي أن يدعو مخلصو الأمة من المفكرين والعلماء إلى مراجعة المناهج وتصحيح المسارات، وإعادة النظر في مرتكزات الدين وخلفياته الإيمانية. وقد كان نصيب علم الكلام في هذا الاتجاه وافرًا.

ويرى الكثير من الباحثين المتخصصين أن الفرق بين وصف الجهود الكلامية الحديثة في العالم العربي والإسلامي بأنها: «تجديد في علم الكلام»، أو كونها «كلامًا جديدًا»، فارق جوهري يقوم على أساس أن «تجديد علم الكلام» يروم التجديد في الفكر العقدي للمسلمين مع حفاظه على مباني العلم القديم وموضوعاته ومناهجه، مع التزام التطوير والتجديد والمرونة في مداخله. في حين أن «علم الكلام الجديد» يتجاوز ذلك ليحمل «فلسفة للدين مغايرة ومعرفية تختلف عن العلم القديم، في أغراضه وموضوعاته ومبانيه ومناهجه، فتُستوعَب الأخيرة، ويوضع الدين في عمق جدل فكري ومعرفي لا ينطلق من مسلمات الاعتقاد حتى يثبتها أو ينفيها، ملتحم بشكل معرفي مع القضايا المعاصرة والمناهج الحديثة في الرؤية والتحليل برؤية غير إطلاقية أو حدية، تلح على مقولات الكفر والإيمان، ولكن تراعى نسبية الفهم وإن قيدتها بعدم نسبية الحقيقة».

لقد ألف المفكر الهندي شبلي النعماني الذي كان يعمل مع المجدد الهندي سيد أحمد خان قبل افتراقهما كتابه: «علم الكلام الجديد»، فالنعماني هو الذي أطلق منذ بداية القرن العشرين هذه التسمية على هذا العلم الجديد القديم. وقد تضمن كتابه الدعوة لتوسيع علم الكلام من أجل أن يضم مباحث جديدة لم يتناولها العلم سابقًا.

كما ألّف الفيلسوف الباكستاني محمد إقبال كتاب: «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، وهو كتاب في علم الكلام الجديد وفي فلسفة الدين. ولا ننسى في هذا السرد للأعلام الرواد -الذين تركوا بصماتهم ظاهرة على تطوير العمل والبحث في الفكرين الديني والعقدي- ذكر المجهودات التجديدية التي مست شق العقيدة عند: محمد عبد الله درّاز، الذي خلف جملة من المؤلفات في الموضوع من أهمها كتاب: «دستور الأخلاق في القرآن» و«الدين»، وغيرها، ومالك بن نبي الذي احتفظت لنا المكتبات بالكثير من أعماله المعالجة لجانب التجديد في الدرس الديني منها: كتاب «الظاهرة القرآنية»، و«القضايا الكبرى»، و«مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، ومن المجددين المعاصرين أيضًا محمد المبارك صاحب الإصدارات الفكرية المتنوعة التي نذكر منها بخصوص مبحثنا: كتاب «نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث»، و«الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» و«نحو وعي إسلامي جديد»، و«المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي»، ومنهم أبو الحسن الندوي، صاحب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، و«الأركان الأربعة»، و«العقيدة والعبادة والسلوك»، و«صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنة والشيعة». ومن المفكرين الذين ساروا

على هذا المهيع وحيد الدين خان إحدى الشخصيات الهندية التي تميزت بمحاولة الجمع بين المضمون السني في العقيدة والمنهج العلمي والفلسفي؛ وبهذا المنهج حاور الملحدين واللادينيين في العديد من كتبه. وتتميز مؤلفاته بأنها تجمع بين البساطة والعمق، وله عدة مؤلفات باللغة الإنجليزية، ومما ترجم له بالعربية: كتاب «الإسلام يتحدى»، و«الدين في مواجهة العلم»، و«حكمة الدين»، و«تجديد علوم الدين»، و«المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل».

ومن جهتها أسهمت المدرسة الشيعية بحظ وافر في مجال الدعوة إلى «علم كلام جديد»، حيث ألف محمد باقر الصدر في الموضوع: «الموجز في أصول الدين»، وبحث في الموضوع وألف فيه جملة من مفكريهم من أهمهم: محمد حسين الطباطبائي، ومرتضى مطهري، ومهدي بازركان، وعلي شريعتي، وحسين نصر؛ حيث استفادوا من تكوينهم المزدوج الجامع بين تكوين الحوزات العلمية والاطلاع على الثقافات والفلسفات الغربية من أجل الدعوة إلى أنسنة الدين، والكشف عن أبعاده الاجتماعية... ومال جيلهم الثاني إلى التحرر من الإيديولوجية والاقتراب من المناهج التحليلية النفسية والأنثروبولوجية والسوسيولوجية.

ويعد المفكر الشيعي العراقي المقيم بلبنان حاليًّا الدكتور عبد الجبار الرفاعي صاحب مجلة «قضايا إسلامية جديدة» من كبار الدعاة إلى تبني علم الكلام الجديد، حيث ألَّف فيه تعريفًا وتطبيقًا عدة مؤلفات منها: «مقدمة في علم الكلام الجديد»، و«علم الكلام الجديد: مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل العلم والدين»، و«تمهيد لدراسة فلسفة الدين»، و«الدين والاغتراب الميتافيزيقي»، و«الدين والكرامة الإنسانية»، وغيرها من الأعمال التي تصب في اتجاه تأسيس مدرسة شيعية إسلامية تنشد التجديد في علم الكلام.

هؤلاء هم المفكرون والباحثون المعاصرون الذين أسهموا في فتح باب التجديد في علم الكلام على مستوى المضامين والمنهج والمباني والمداخل واللغة وغيرها، وكلهم نادوا بضرورة مراجعة النظرة التقليدية للعلم حتى يحقق بعده التجديدي الملبي للحاجيات الضرورية التي يفرضها تقدم العلوم وتطور الحياة الإنسانية في عالم اليوم. ومن هنا يظهر الفرق بين ما يدعون إليه وما قام عليه الدرس الكلامي التقليدي الذي كان محكومًا بظروف زمانه وقدرات فترته التاريخية.

6. يذكر المؤرخون أن علم الكلام تأسس لمبررات داخلية أفرزتها البيئة الإسلامية وأخرى خارجية وافدة كالفلسفة اليونانية، إذا كانت تلك مبررات التأسيس في القديم فما مبررات التجديد في العصر الحديث؟

المبررات الجديدة شبيهة بالمبررات القديمة، فالدواعي الخارجية متعددة وما تزال تدفع في اتجاه تطوير علم الكلام، فإذا كانت الفلسفة في الماضي أسهمت في تحريك راكد الدرس العقدي الذي كان منطويًا على النص متقوقعًا حوله، فشكلت باستفزازها للعقول وطرحها للإشكالات الجديدة التي استقدمها إلى عالم المسلمين أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى عامل تنشيط وتحريك لهمم الباحثين في العقائد من المسلمين وتثوير رؤاهم وتدعيم حججهم، فإن واقعنا المعيش قد أفرز من المتغيرات العلمية والقانونية والإيديولوجية والفلسفية الشيء الكثير. كما أن التقدم التقني والفني والتجريبي المرتبط بالمادة وبالعقل البشري وبالثورة الذكائية الاصطناعية، كل هذه المحفزات تعتبر تحديات جسيمة أمام العقلية الدينية عامة والإسلامية على وجه الخصوص من أجل النهوض والبحث عن وسائل ومناهج الدفاع عن العقائد وعقيدة الإسلام في وجه هذا الزحف الجارف الذي تقوم به لحظة الحداثة وزمان العولمة وفترة الانفجار الكوني والثورة على القيم وعلى الروحانيات والعقائد السماوية.

أما المحركات الداخلية الداعية إلى التجديد فلا يمكن حصرها ولا عدها لأن ما تعانيه الأمة من أمية وجهل وتخلف وضعف في المواكبة، وتراجع في المجالات الاقتصادية وظلم وتسلط وفساد في الحياتين الاجتماعية والسياسية، كل هذه العوامل تجعل مهمة الدعاة ودورهم محدودًا في السيطرة والتوجيه والإرشاد، لا سيما بعد انتشار وسائل التواصل التقنية الحديثة التي فرضت تحديات قيمية واعتقادية كبيرة جدًّا، مما جعل مهمة ومسؤولية المشتغل بعلم الكلام الجديد صعبة ومعقدة.

7. إذا تتبعنا تاريخ النداء التجديدي لعلم الكلام هل يمكن تصنيفه إلى مراحل محددة؟ وما أهم خصوصيات كل مرحلة؟

من الصعب أن أعطيك جوابًا علميًّا عن هذا السؤال لأن علم الكلام الجديد لم ينضج بعد، ولم تظهر نتائجه المنشودة بصورة واضحة لحد الآن، وإنما كانت المحاولات الناهضة به محدودة في بعض

المناطق من العالم الإسلامي، فقد ظهر في بعض البلدان الإسلامية غير العربية (الهند وباكستان خاصة)، وحمل لواءه المفكرون الشيعة (في إيران والعراق ولبنان)، وحاول المشتغلون به ذوو المرجعية الإسلامية السير به قدمًا نحو آفاق جديدة، ولكن نظرًا للخصومات الإيديولوجية والنزاعات السياسية ولانتشار الفرقة والتشرذم الإسلامي/الإسلامي لم يجد هذا العلم التجديدي الصدى المطلوب في بقية الدول العربية، ولم تتبناه المجامع الدينية الإسلامية في هذه البلدان (أقصد: الأزهر، والزيتونة، والقرويين)، بل ما زال علم الكلام بصورته السلفية والأشعرية وحتى الماتريدية هو المسيطر في معظم البلدان الإسلامية السنية الآن بما في ذلك الدول التي ظهر فيها علم الكلام الجديد وانتشر أولًا ذلك الانتشار المحدود... ومن ثم فلا يمكن مناقشة السؤال المطروح إلا في فضاء العقائد الشيعية بإيران والعراق ولبنان وعلى المستوى الفردي لا على المستوى الرسمي.

8. علم الكلام علم متكامل حينما تأسس؛ أي له موضوع، له منهج وله غاية، فهل العملية التجديدية استوعبت علم الكلام في مستوياته هذه: الموضوع، المنهج والغاية؟

هذا السؤال يفترض أن يجاب عنه عندما يكون قد تم الانتهاء من تأسيس رؤية شاملة ودقيقة عن الدرس الكلامي الجديد، وقد أكدنا في الجواب المتقدم أن هناك خطوة على الطريق لم تنضج بعد ولم تكتمل، ومن ثم فلا يمكننا الانتقال إلى مرحلة التقويم الإجمالي بخصوصها لأن بيننا وبينها بونًا شاسعًا.

9. في ضوء العملية التجديدية لعلم الكلام، ألا تتحول وظيفته التقليدية التي هي الدفاع عن العقائد، كما قال ابن خلدون، إلى مهمة أخرى هي إعادة بناء المعرفة العقدية؛ لأن السياق التجديدي الحديث فرض تصنيفًا مختلفًا؛ حيث صارت بعض المسائل غير العقدية تصنف تصنيفًا عقديًّا؟

في حال اكتمال الرؤية والبناء لصورة هذا العلم الكلامي الجديد، ستنفتح أمامه آفاق جديدة، وستصير له وتنضم إلى مهامه وظائف أخرى كثيرة، منها ما ذكرتم من إعادة بناء المعرفة العقدية، ومنها رسم حدود المجال الذي يتعلق بالعقائد والجوانب التي يمتد إليها البعد الإيماني، ومنها ضبط العلاقة مع المخالفين في الدين، وكيفية الاستفادة الدينية من العلم الحديث، ومن الثورات التقنية والإعلامية

لنصرة المعتقدات، ومنها التنبيه على العلوم التي قد يتقاطع علم الكلام الجديد معها مفيدًا وموجهًا ومستفيدًا من نتائجها، إلى غير ذلك من المهام والوظائف التي يمكن للعلم الجديد وللتجديد الكلامي أن يضطلع بها في قادم الأيام.

10. هل من كلمة أخيرة؟

الذي يمكن قوله: إن الباحثين في علم الكلام الراهن مطالبون بتجاوز الصراعات الداخلية التي أنهكت مجهوداتهم وعمقت تفرقهم المذهبي، وحالت دون نهوض الأمة الفكري، بل وأدت إلى تراجعها عن إنجازاتها التي حققتها خلال فترة النهضة القريبة، وألقت بها إلى أتون صراعات عفا عليها الزمان وتجاوزها التاريخ. ولا بد من التأكيد على أن هذه الدعوة لا تقصد إلى تجاوز التراث والترفع عن اجتهادات السابقين، فهذا جانب له أهميته، ولكن الانكباب على هذا التراث وعلى عطاءات السابقين إنما يكون من أجل إعادة تأسيس التصورات والاستفادة من صالح مجهودهم، ثم بالتالي تجاوز عوامل ومظاهر الإخفاق التي قد تكون حصلت في اجتهادات الأجداد بالنظر إلى عدم الانتباه إلى تغيّر الوقت وتحول المتطلبات والحاجيات الفكرية والدينية.